النمو الإجتماعي في ضوء القرآن والسنة

تمهيد:

إن القرآن الكريم ينظم أفعال المراهق وعلاقاته بأفراد المجتمع ويزوده بالقدرة على مشاركة الناس فيما يحسون من أفراح وأحزان، وهذه القدرة من أهم العوامل التي تمكنه من ملائمة نفسه مع البيئة الإجتماعية التي يعيش فيها.

«عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[1].

فالمراهق المسلم في مجتمعه مثله كعضو في فرد، ولا يخفى أن إصابة جزء منه يتأثر به الجسد كله وينفعل له، وهي لفتة للمسلم كثيراً ما يشده الإسلام إليها ويذكره بها وربما استوعب ذلك جميع المعاملات الجماعية، فهي حاجز للأنانية وحب الذات وهي في الوقت نفسه تذكر المعتدي بالألم الذي ينبغي أن يشعر به نتيجة اعتدائه على أخيه، فعليه أن يشارك في ألمه ويسهر لما أصابه، وهو

---

(١) صحيح الإمام مسلم كتاب البر الصلة ـ باب ـ تراحم المؤمنين وتعاطفهم.

حاجز داخلي مانع للمراهق من إيقاع الضرر بأفراد المجتمع المسلم.

إن التربية الإجتماعية في القرآن الكريم تتمثل في تنشئة الفرد وتكوينه على درجة عالية من الناحية الأخلاقية، ليصبح مفتاحاً للخير ومغلاقاً للشر في كل وقت وحين، وتطهر نفس المراهق من جميع الرذائل الأخلاقية، وتقوى فيه دوافع العمل الصالح ولا يتحقق ذلك بدون تنمية الإدراك الخلقي والسلوك الإجتماعي، ليتسنى له معرفة حكمة المبادىء الأخلاقية، وليتمكن من التمييز بين السلوك الخير والسلوك الشرير والواقع أن ما سنه القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ من أخلاق زاكية، ومبادىء إجتماعية راقية لا تدانيها أي نظرية تربوية قديمة أو معاصرة، لأنها تقيم أصولها على العقل البشري والموروث من العادات والتقاليد، ولا تهدي بنور الوحي وهو عين ما تميزت به التربية الإسلامية.

العوامل المؤثرة في النمو الإجتماعي في المراهقة

١ ـ الأسرة

إن الأب والأم مسؤولان عن تربية أولادهما، كما أن صلاح أولادهما مرتبط بصلاحهما، فإذا حاد الأب أو الأم عن صراط الله المستقيم الذي رضيه لعباده، تبعهما أولادهما، فعليهما وزر عملهما وأولادهما، وإنهما لا يتحملان وزر أولادهما إذا ما صلحا وقاما بواجبهما من الرعاية والعناية والتربية الصحيحة لأولادهما.

إن الحياة المنزلية مليئة بالمواقف التي يكتسب فيها المراهق ميوله وعواطفه واتجاهاته، فإذا كان الجو المنزلي يسوده الحب والعطف والهدوء والثبات، فإن المراهق يشعر بالإطمئنان والثقة في نفسه، فيبدو عليه مظهر الإستقرار والثبات، وإذا كان الجو المنزلي مشحوناً بالمنازعات واضطراب العلاقات بين أفرادها انعكس ذلك على سلوك المراهق، فيبدو الإضطراب وعدم الثبات في سلوكه وبسوء تكيفه مع نفسه ومع أفراد المجتمع.

إن الإسلام يوجب على الأباء والأمهات أن يبذلوا جهودهم المتواصلة لتهذيب مشاعر المراهقين من أبنائهم وتقويم طباعهم، وتعويدهم على ممارسة العادات والآداب الإجتماعية، ليكون ذلك عوناً لهم على التكيف السوي مع أفراد المجتمع.

إن قيام الآباء والأمهات بواجباتهم نحو التربية الإجتماعية والأخلاقية للمراهق يكفل إقامة مجتمع إنساني هادىء، تسوده عواطف المودة والمحبة، وتتمحى منه مظاهر الغرور والكبر والأثرة والأنانية وحب الذات، وتستقر فيه الأوضاع، وتسمو فيه العلاقات، وتبدو فيه شخصيات المراهقين متزنة هادئة، تتفاعل مع العلاقات الإجتماعية بحماس متقد.

«إن مكان الأب على رأس الأسرة وقيامه بدور القيادة الحقيقية والتوجيه لكل أفرادها إنما هو مسؤولية خطيرة في استقرار الأسرة، وقيامها كخلية سليمة في بناء المجتمع المسلم... فالأب هو الذي يضع أسرته في المجتمع ويحدد موقف أفرادها ودورهم في البناء الإجتماعي، ويظل دور الأب في المنهج الإسلامي سليماً لا تهزه التيارات الفاسدة، لأنه قائم على قيم ثابتة ومعايير سلوكية محددة، يؤصلها الإسلام بمنهجه التربوي حتى لا يفقد دوره في الضبط الإجتماعي وتوجيه الفكر والسلوك»[1].

إن رسالة الأمم التربوية لا تقل أهمية عن رسالة الأب فعلى الأم أن توالي نصائحها لأبنائها في جميع مراحل نموهم، وأن تستمر في إرشادهم وتعويدهم على خصال الخير لتقدم للمجتمع أعضاء صالحين قادرين على تولي مسؤليتهم في المجتمع.

٢ ـ المعلم المسلم:

إن شخصية المعلم المسلم من أهم العوامل المؤثرة في شخصية المراهق لما تحتله من مكانة عظيمة في نفسه، ولما يتمتع به

---

(١) الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية (صـ ٣٠٠) محمود محمد الجوهري ومحمد عبد الحكيم خيا.

المعلم من إمكانيات وقدرات ذاتية وعلمية تمكنه من القيام بمهمته التربوية، ولما يتمتع به من الصفات الحميدة، باعتبارها الإطار الذي يتحرك المعلم من خلاله لممارسة نشاطه التربوي، ويأتي في مقدمة هذه الصفات القدوة الصالحة لما لها من تأثير قوي في نفسية المراهق، ذلك أن إرتقاء المعلم إلى مستوى القدوة الصالحة أيسر السبل إلى تحقيق الناشئة والمراهق وعلى وجه الخصوص.

إن المعلم المسلم لا يقف عمله التربوي عند حد توصيل المعلومات للطلاب وإكسابهم الخبرات، العلمية والفنية بل هو مرشد وقائد إلى كل فضيلة خلقية وسلوكية لكي تسلم له عملية التأثير في الناشئة والمراهقين يجب أن يكون رحيماً عطوفاً محباً لطلابه عادلاً في معاملاته معهم، حريصاً على نفعهم وإسعادهم.

المعلم المسلم يعني بالناشئة من كافة النواحي العملية والسلوكية والتربوية، ومن هنا بات لزاماً عليه الإحاطة بأهداف وأساليب التربية الإسلامية، وأن يبذل ما في وسعه لتغذيتها وتحقيقها في أنماط السلوك الإجتماعي للمراهقين، وأن يكون حريصاً على تطهير النفس بترك ظاهر الإثم وباطنه، إذ يعتبر ذلك أساساً لتحصيل الأخلاق الحميدة والسلوك القويم، وفق المنهج الإسلامي التربوي.

«المربي الناجح في الوقت الحاضر لا يقتصر همه على تزويد التلميذ بالمعارف والمعلومات، بل يعتبر نفسه مسؤولاً كل المسؤولية على أن يحقق لتلميذه القدرة على حسن التوافق الإجتماعي والإنفعالي بالإضافة إلى عنايته بجانب التحصيل العلمي. ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن ما ينفقه المربي من وقت وجهد في الوقوف على نفسية تلاميذه، وفي مساعدتهم على أن يحسنوا التوافق مع بيئاتهم المادية والإجتماعية لا يذهب هباء بل أن المربي حين يعين تلاميذه على أن يقوموا بحل مشكلاتهم الشخصية إنما يعينهم في نفس

الوقت على أن يحرزوا قدراً كبيراً من النجاح في تعلم المواد الدراسية بجهد أقل»[1].

إن المعلم المسلم يحب أن يعمل على إثارة دوافع السلوك الإجتماعي والفضائل الأخلاقية على أن يشارك طلابه في بعض أنماط السلوك الإجتماعي كعيادة المرضى وجمع الصدقات وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين، وأن يشاركهم في النشاطات العلمية والتجريبية، وأن يبذل لهم كافة المساعدات التي يحتاجونها.

٣ ـ القدوة والأسوة الحسنة:

التربية بالقدوة والأسوة الحسنة ذات أثر فعال في السلوك الإجتماعي للمراهق وذلك ناشىء طبيعي لما تتميز به مرحلة المراهقة من النضج العقلي المصاحب لهذه المرحلة النمائية، حيث إن الناشئة في مرحلتي النمو السابقتين لا تمكنهم قدراتهم العقلية من التمييز الدقيق بين القول والعمل، وعما إذا كان هناك تطابق بين القول والعمل أم لا.

وأعتقد أن مرحلة المراهقة أكثر قابلية للتأثير والتأثر واكتساب المعلومات والخبرات وطرائق السلوك الإجتماعي، ولا أشك في أن الإنفصال بين المبادىء التربوية ـ في جانبها النظري ـ التي يدعو إليها المربون وبين المظاهر السلوكية ـ في الجانب التطبيقي ـ من أهم العوامل في انحرافات المراهقين ـ حيث أن سرعة النمو في هذه المرحلة تغري بالخروج على كل مألوف، بسبب الإضطراب الحادث عن عدم التطابق بين النظرية والتطبيق، ولهذا السبب جاء التحذير الإلهي من الإنفصال بينهما.

---

(١) السلوك الإجتماعي للفرد وأصول الإرشاد النفسي (صـ ٢٤٤) د/ محمد مصطفى زيدان ـ النهضة المصرية.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[1].

وقال الله تعالى:

﴿أَتَأْمُرونَ النّاسَ بِالْبِرِ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[2].

إن القرآن الكريم يؤكد أهمية القدوة الصالحة والأسوة الحسنة وأثرها في تهذيب الطباع وتقويم السلوك الإجتماعي للفرد والجماعة، كما يدعو إلى الإقتداء برسول الله ﷺ فهو الأسوة الحسنة لمن أراد أن يجمِّل نفسه بالفضائل الأخلاقية والإجتماعية، ليكون محموداً عند أفراد مجتمعه.

قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللّهُ كَثِيراً﴾[3].

٣ ـ العبادات المفروضة:

إن العبادات المفروضة والنافلة ذات أثر واضح في علاقات المراهق الإجتماعية فهذه العبادات من صلاة وصيام وصوم وحج وزكاة تنظم سلوكه وعمله وفكره وشعوره، وإنها لتدفعه إلى فعل الخير وما ينبغي وتحول بينه وبين ما لا ينبغي فعله في علاقاته مع أفراد مجتمعه، فالله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وجعل الكون معاشاً له،

---

(١) سورة الصف آية: (٢، ٣).
(٢) سورة البقرة آية: (٤٤).
(٣) سورة الأحزاب آية: (٢١).

فهو سبحانه وحده الذي يقدر أن ينظم للإنسان شؤون حياته، فيما أنزله على رسوله الله ﷺ من آيات بينات، وإيجاد الصلة بين الله سبحانه وبين عباده مرتبط بالمحافظة على الفرائض الدينية، فهي التي تدفع الفرد لأن يتلقى عن الله سبحانه ويرجع إليه في كل سلوك ـ فردي أو اجتماعي ـ ويترك غير هذا المصدر، لثقته بأن الله سبحانه وتعالى هو العليم الخبير بدقائق الأشياء، فهو وحده الذي يهدي إلى النظام الأمثل للحياة والإحياء، وقد جمع هذا النظام في مثل قوله تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1].

«فالعبادات شرعت لتهذيب النفوس، وتربية روح المساواة وروح الإجتماع، الذي لااعتداء فيه، وإذا كانت العبادة لا تحقق تلك الأهداف، فليست عبادة ولا يقبلها الله، وهي تجلب الذم لصاحبها، ولنضرب لذلك مثلاً بالصلاة وهي أوضح العبادات الشخصية، فقد وصفها القرآن الكريم بأنها تنهي عن الفحشاء والمنكر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الصلاةَ تَنْهِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فإن لم تؤد إلى هذه الغاية فهي ليست مقبولة، فإذا كان يصلي ويأكل مال الغير، فليست صلاته مقبولة وهو محاسب عليها، والويل له من الله ولذا قال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ

---

(١) سورة البقرة آية: (١٧٧).

وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ﴾ أي يمنعون الزكاة التي بها العون من الغني للفقير»[1].

إن الزكاة أو الصدقة ـ في حدود إمكانيات المراهق المالية ـ تضاد دوافع النفس السلبية كالأثرة والأنانية والبخل والشح، وتكبح جماحها وتعلى في النفس مسالك البر والرحمة والعطف والإحسان إلى الفقراء وذوي الحاجات.

والصوم فيه من الفوائد الصحية والأخلاقية والإجتماعية التي تعود على المراهق بالخير والفضل والثناء، حيث يحبس لسانه عن الغيبة والنميمة فلا ينهش أعراض المسلمين والمسلمات، ولا يهجر ولا يشتم أحداً، ويرطب لسانه بذكر الله وتلاوة القرآن الكريم ومن فوائده الإجتماعية أن المراهق إذا شعر بألم الجوع يرق قلبه وتجود نفسه وتمتد بالعطاء يده إلى الفقراء والمحتاجين، ليدفع عنهم ما يعانون من ألم الجوع وغيره من الآلام.

---

(١) تنظيم الإسلام للمجتمع الإمام محمد أبو زهرة (صـ ٢٠) ـ دار الفكر العربي.